دفاتر هيليوس

فاضل عباس

دفاتر هيلوس

الإهداء

إلى علي يوسف النكال في ذكرى رحيله

الكل يشقى
عدا الآلهة.

— تشارلز بوكوفسكي

بسمة

مَنْ سِواكِ يأبَهُ، عَلى نحْوٍ يَمِيلُ بي، بكسْرِ الصَّنادِيقِ المُكدَّسةِ، بكلِّ الرِّيْشِ، والحَبْلِ، بالشَّواهِدِ التي رُكِنَت، وبرُزَمِ المسامِيرِ مُعْوَجَّة. مَن سواكِ يُحاوِلُ حَرْبَهُ عَمْدًا، عَلى ضَعْفِي، يُقاوِمُ حُزْنيَ المَغْلوب، في صَفِّي، ويُكْمِلُ هذهِ المُدَّة، بابتسامةٍ يزْرَعُ الوَرْدَ في خدَّيَّ – مُمْتدَّة.

سوء

فرَاغٌ يُمَطُّ داخلَ رَأْسٍ تَعِبٍ، ينَالُ مِنْ حدَقيْنِ، وعقْلٍ خَرِبٍ إنْ يُحَاوِلُ إتْمَامَ جُمْلة. فرَاغٌ، سيِّءٌ جدًّا، يَمْتدُّ حتَّى ثُقْبِ الرَّصاصةِ بَعْد عامٍ، يُحاوِلُ النُّبُوءاتِ كلَّ يومٍ، كلَّ وقْتٍ يطلّ عَلى عَظْمٍ يَسْتديرُ حَوْلَ العُنُق، يَنْفِي بشكٍّ إمكانيَّة القَتْلِ، أوْ فَصْلِ مَا فيهِ عنْ بعضهِ: هذَا انتِحارٌ واضِحٌ جدًّا، سيِّءٌ، لكنْ، كلُّ شيْءٍ صارَ كذلِك.

إله

مُدَانٌ بالَّتِي يَهْذِي، غِرْبَانٌ، ومَوْتٌ، ملَكٌ بهِ عرَجٌ مِنْ طُولِ مَشْيِه، وأنْبيَاء معلَّقُونَ حِبَالهُ لاسْتِعمالٍ أخيرٍ بَعْد صمْتِه. يَشُدُّ كلَّ هذهِ حِينَ مقْتِه، ويُصَلِّي ليْلًا يَليهِ. حزنٌ أقامَهُ عِوَضَ إلههِ، حَتْمٌ أبالِسَةٌ تَعْتريهِ. مُدَانٌ بكُفْرِه. يرْكعُ، يضَعُ مِسْمَارًا منْ يدِه، خَيْطُ دَمٍ، ورَاحُهُ بهَا ثُقْبُ قَدْرَ عُمْرِه.

حجر تضرّج باليأس

هكذا. يسْتمرُّ أبْلهٌ بنُصْحِه، يُعلِّمهُ الإنْشاءَ، يُشِيرُ إلى أخطائهِ الَّتي يَدْري، ويُعْيِيهِ. يأسَفُ لصفَاقتهِ، يغْفِرُ لهُ كلَّ ذلك، وَيحْطِمُ وَجْهه. تِلْك لعْنةُ النَّصِّ، إبْقاؤهُ بعَرَجِهِ. أحْمَقٌ مَنْ يَبْغي النَّيْل من نصٍّ مُشوَّه، مَنْ يُحاوِل تَنْويرَ نِصْفَ شَيْطانٍ كَيْفَ يَهْذِي. دَمٌ، ومَغْفِرَةٌ مُلْقاةٌ صَوْبَ رَأسِه، أوَّلُ الـــزَّمانِ وصَخْرٌ ليْس يَهْوِي؛ لِئلَّا يُفاقِمَ الجُرْحُ الجَدِيدُ نَزْفَ يأسِه، يُمْسِكهُ عَنْ أوَّلِ الفِعْلِ مَا كان لتَوِّ.

جحيم للمسرّة

إذن، فأنتَ الفرَاغُ الماثلُ بينَ النَّاسِ والأشياءِ، الصَّمْتُ، البَرْدُ، تشْهَدُ بعدَ حينٍ، عَن قريبٍ، تساقُط رُوحِكَ مِنْ عَلى جسدِك. والعُتْمةُ المُتآكِلةُ منذُ الأمْس، لمْ تزَلْ قائمة، على زوَاياكَ وفي أحْرُفِك. بَعْدُ لم تنصرِف، تسْألُ عن شيْءٍ مَّا يُشْبِهُك، أوْ قليلًا يَعْرِفُك؛ لتُعوِّضَ عنْهُ -باكتِئابٍ- مسرَّةَ رحِيلهِ واختفائك. مسرَّةٌ أُخْرَى، بعُقْدةٍ، وعُلوّ.

طريقة

لا أدري. كيفَ نعبرُ الأشياءِ؟ نَمْحُو آثارَنا مِنَّا، نُغادِرُنا، ونَحكي لأُناسٍ نلتقيهم عن خرابِنا القديمِ، وأنَّا مرَرْنا على الحُزْنِ جالسًا يكتُبُ في إحدى يديْهِ رثاءً يُتأتِئُ سطْرَهُ الأوَّل. وأنَّا الآنَ إنْ نُحيِّي الآخرين، نشعرُ أنَّا هُنا، لا على بُعدِ أمتارٍ من الداخل؟ كيفَ نعبُر، لنكتُبَ دُونَ أنْ نختنِق، أوْ نقتُلُ أيَّا ما يُسمَّى، هذا المُعلَّقُ فوقَ أجسادنا التَّعبى؟ كيفَ نُغادر هذِه الأشياءِ، ولو لساعةٍ، دُونَ أنْ ننتحر؟

الاكتئاب كذلك أزرق

لستَ بحاجةٍ لهذه. انفض من الأحرُفِ، يديكَ المُزْرَقَّتيْنِ، واحْبُ. على بُعد رصيفينِ، تجد ورقَ الرَّسائل جالسًا، يُحدِّقُ في النَّوافذ، يطلُع الصُّبحُ، ويطلُعانِ عليهِ كلَّ مغيبٍ، يعرفانه، يُتجاهل قدْرَ صِدقه، يتجاهلانه، ويمشيانِ، يبتعدان عنهُ كهاربيْن. حالما تصِلُ لأطرافهِ المبتلَّةِ، دثِّرْهُ بهاتيْنِ اليديْنِ، فلطالما كانت عنهما نبُوءةُ الأعمى، دفِّئهُ وإنْ بجُرحٍ صغيرٍ يمتدُّ لنصفِ موتٍ، لكن، إنْ دامَ مُبتلًّا كئيبًا غير راغبٍ، مزِّقهُ، أوْ ارمهِ في البحر برفقٍ، كُن خلاصه، وابقَ حتَّى يرجعان، أنبئهُما موته، لا تخشَ إنْ ارتَبكا، أو ارتعبت فتاته، فموتُه، موتُ ألفُظ الأبدِ الكثيرة، وموتُ الشعور.

مسيح يعبر المتوسّط

ينزلُ عن صليبه، يَكسرُ أصابعه، يُفرغ المسامير من جيبه، يتركُ رسالةً واحدة، بسطرٍ واحد، بنُقطةٍ واحدة، ويرحل. يُغادر المدن، يعبرُ البحر إلى بعيدٍ، ليدخُل مدنًا ثانية، لآخرين، لأطفالٍ يرجمونه، وكافرين به، بنبوَّته، باصبعيهِ، بالشَّوك الماثلِ تاجًا فوقَ رأسه. ويشهدونه يضربُ شجرًا لا ينبُت، يصنعُ منهُ صلبانًا كثيرة، ويرفعُها بأكفِّهِ المُدماة، ليرتقيها كلَّها. وبعد ليالٍ، يُغادر، لا أثر لصلبانه، يتبعونه، ليجدوه على بُعدِ أزمانٍ، مُنتحرًا أمام المهد.

هرب أخير

يُريد هربًا من أضلُعِهِ، يتركه فارغًا كُلَّهُ، يتركُ ببعضِ دناءةٍ، لنقمةٍ من شيءٍ، تُزعجه. يُربكهُ وجودُهُ منذُ وقتٍ، تُربكهُ الأشيَاءُ، والأحاديثُ، ولافِتاتُ احتجاجٍ أخيرٍ، واختفاءُ صِرْصارِ اللَّيْلِ، وخدْشٌ في النافِذة. يُريدُ هربًا، لانزعاجٍ تامٍّ، مُتشظٍّ في نواحيهِ، من عمومِ عمره. يريدُ هربًا أخيرًا، يُشبه سابقهُ في كلِّ شيْءٍ، إلا انتهاءه. أنْ يَغْفُوَ فوْقَ صدرِهِ.

حبّ

إنَّ الطريق المؤدِّيةَ إليكِ، معْشُوقةٌ قدْرَ لُقْيًا. تُشْبِهُ هجرَة النَّاس إلى مُحْيٍ وهُمْ محضُ دُمًى، يخرجُونَ من بينَ يديْهِ طِوالًا، أحياءَ، ينظرُونَ أصابعَهُم بحدقٍ تدور. تُشْبِهُ حلمَ الوصولِ، وخيال اللهِ عن أوَّلِ الأشياء. تُشْبِهُ قُبلةً أولى. إنَّ الطريق إليكِ، ممْشِيَّةٌ، عددَ وطْءِ النَّاسِ أعْتَابًا، وطرْقِهُمُ الكائنَ الأقدَم، برقْصٍ حوْلَ نارٍ، فوْقَ ريشٍ، تحْتَ قَتْلِ الشَّمْسِ أزمَانَ عِدَّة. تُشبه، أكثر من هذا كلِّه، طلب المغفرة، قدْرَ يأْسِ عاشِقٍ، أوْ فرحه، يأخذُ أقصَى طرف الشعور. تلَكُّؤَهُ في الكلام، قدْرَ حُبِّه.

عبث

أُحاول التذكُّر، كمْ نصٍّ بدأتُهُ بلا أدري، بسُؤالٍ مَّا، أو جُمْلَةٍ تَنْحُو إلى صمْتٍ أرغبُ البدء فيه. أكتبُ حيرةً بالنصِّ ذاته، بما فيهِ من جُملٍ مُقدَّرٌ لها أنْ تكتئبَ، بلا جُملٍ أخيرةٍ أو نهاية، توَقُّفُ كانقطاعِ الهواءِ فجأة. أجهَدُ أنْ أكتُبَ نصًّا، وإنهاءُ نصٍّ غير ممكنٍ، كأنْ أرضى عن بعضِه، أو أُحاول. لِذا تجدُ أكثرها مُفرغةَ المعنى، لا قصْدَ تَتْبَعُه. عبثيَّةٌ كخَلْقِ قلْبٍ وهدْمِه.

جمهورية

عليْنا أن نطيحَ بالتَّماثيل، كترجمةٍ رديئةٍ للزَّمن. لن يَستوجبَ الأمْرُ صليبًا، أو شهيدًا جديدًا، أو بطولةً مُدَّعاة. يَنبغي أنْ يُطاحَ بالتَّماثيلِ مُغطَّاةً لِئلَّا يتعرَّف عليها أحد. أن يُجعَلَ الهواءُ نقيًّا من أسمائها، أنْ تُخلع الأُطُر من عَليها وتُحرَق. عليْنا أنْ نحترِفَ الصَّحْو، أنْ نُفكِّكَ هذا كلَّه، أنْ نتخلَّى عن السَّماءِ للحظة، وأنْ نَسأل.

بعد الطبعة الواحدة

أُحدِّقُ في أعيُن الغربانِ، أفحَصُ ما تبقَّى من نصوصٍ لعلَّ إلهًا قد تهرَّبَ من مَحْوٍ ردِيء. أتأكَّدُ مِنْ خُلوِّ اللهِ وأنبيائهِ، ولفْظِ الخطيئة. مِنْ تجرُّدِهِ أيّ شيءٍ يُغْضِبُ الآخرين.

تخلَّفَ الصَّنَمُ عَنِ المجيءِ، بَعْد محوَيْنِ، والغِرْبَانُ تَنْظُرُ ببلاهةٍ للشَّمْس. قتل أحدٌ مَّا شاعِرًا هُنا وفرَّ برأسه. تنتظِرُ الغربانُ حلًّا للمُعْضلة: ليس إلهٌ في السَّماءِ يتعرَّفُ على المقتول، والرُّسُلُ تفرَّقُوا، والواقِفُونَ -أزمانًا- تمَادَوْا في الرَّحيل.

وضَعْتُ مسوَّدةً، بندَمٍ مُرٍّ، لناشرٍ يَفعل فيها ما يشَأ. جُنَّتِ الغِرْبَانُ، بعد أشهرٍ، وفرَّ الصَّنمُ بتمكُّنِه الكلام. أرمِّمُ ما تبقَّى مِن مَصيرٍ، وأُحاوِلُ بكلِّ كسَلٍ قَلبَ رأسِيَ ناحيَةَ الجسَد، فلرُبَّما عادَ بهِ حيْثُ جئنَا، ألمُّ أوراقيَ بكلِّ تفاهَتها، وأرجعُ للعُزْلةِ الخالِدَة.

خانَ الصَّنَمُ غِرْبَانهُ، وقتلَ إلـهًا كريمًا، إذ ساءَ خيالُهُ، بعْدَ الطَّبعةِ الواحدة.

كآخر صفحةٍ من ديوان

ثَقِيلٌ هوَاءُ اللَّحظةِ الرَّاهنة. وكأنَّ تكسُّرًا عَلى رِئتيَّ يُضَيِّقُ ما تبقَّى مِن سِعَةٍ، يُنْزِلُ الكُتُبَ من عَلى أضْلُعِي إلى صَفيحٍ يَحترق. وكأنَّني طِفْلٌ تلاشَتْ أوْجُهه، يُعبِّرُ عن بُكائهِ بالضَّحِك، ويُشوِّهُ مَطْلَع الجُمْلةِ الآتيَة. ثَقيلٌ كاكتِئابٍ رَّحيمٍ، كاسْتقامةِ المَشْنُوقِ أثْقَلَ ما يَكونُ، كإدانةِ ربٍّ قديمٍ، أوْ خطأ.

بيروت

«نسيتُ القهْوةَ تغْلي!»

أهرَعُ بخُفٍّ واحدٍ، أتجاوزُ بيْت العائلة، وأركضُ الشَّارعَ حتَّى آخر الصّبح. أضيعُ، في كلّ البيوتِ، وأرجع. قدمِي مُدماة كالعادةِ، ورأسي مُسرَّحةٌ بإتقانٍ غريبٍ. لستُ أذكرُ صَحْوِيَ كيفَ كانَ، ولكنَّني متأكِّدٌ، فقدْتُ مِشْطِيَ عندَ السَّابعة، بلَلْتُ أصابعي بالبحرِ، ورَّطْتُهُ بطريقةٍ مَّا معي، ورجِعْت. أجلسُ الآن هادئًا طرفَ النَّافذة، أحدِّقُ في السُّورِ تأكلهُ العتمة. أُودِّعُ الشَّجرةَ بقصيدةٍ، وأنهض. أضبطُ السَّاعة، وأعودُ للنَّوْم، ليأخُذَني الأمْس.

عشرون دقيقة

الصَّحْوُ، مَوْتٌ أخفُّ وَطْأة. عنَاءٌ، بنَذْلٍ كالأرق. رجلٌ يصْرخ في وجهِ البحرِ لِساعتيْنِ، يُؤنِّبُهُ، بَعْدَ الغرَق. إغماضَةٌ، تسمَعُ فيها شاشةً تُشْبه الرَّأس، فارغةً، وامْرأةً في منتصفِ ولادة: الرَّئيسُ يُحيِّي شَعْبَهُ، الأمُّ ماتَ جنينُها، واستوى الشَّعْبُ إلهًا فوْقَ تاريخِ الإبادَة. الصَّحْوُ روايةٌ رديئةٌ، يا صاحبي، أغنيةٌ تستغرقُ في القتلِ عشرينَ دقيقة. النَّوْمُ أهون من هذا كلِّه، أدري، ولكن، من فرطِ حزني أنسى الطَّريقة.

آلزهايمر

التّعب. وجوهُ الآخرين. تمْتماتٌ، وازدراءٌ واضح. صخب. هذهِ الغرفةُ آخذةٌ في التآكل، تتقلَّصُ حتّى فتحةٍ تحتَ منتصفِ الوجْهِ، تتجعّدُ، تدريجيًّا. لا أحدَ يُجيد التّمسُّكَ بأيِّ الصّمتِ. لا أحد، يعرفُ كيفَ يُخرِسُ هذا التّصاعُد، اسْتمرارُ التّحمُّلِ والأذى. لا أحد يُدرك أو يُلاحِظُ غيَابَ شيْءٍ من عينيْه، أنَّ ثمَّة ثُقْبًا في ظِلِّ الرّأسِ قد ابْتلعَ العاطِفةَ، والحبّ، ثمَّة ما يسرِقُ المعرفةَ منه؛ لا يُميِّزُ الوجوه، لا يُلاعِبُ الأطفال، وليس يَتلطَّفُ في تحريكِ أيّ قطعةٍ خارجَهُ. ثمَّة جسَدٌ، بلى. يحمِلُ اسْمًا، بلى. رأسًا، بلى، ولكنْ دونَ أيِّ جزءٍ من الذّاكرة. ثمَّة رأسٌ -لوهلةٍ تبدو هنا- ولكنَّها -يا لِخَيْبةٍ- رأسٌ فارغة.

حيّ تحجَّر

يُحاول الأشياءَ وحْدَه. حجَرٌ مُهْمَل؛ حَجَّرَهُ التَّعَبُ، والحِبْرُ الجافُّ عَلى ورَقه، هدْرُ محبَّتِه، وعلى أرَقِه تَسْوَدُّ نجُومُ اللَّيْلةِ. هل يَحظى بالشَّايِ كهُدنة؟ هَل يسأل؟ ما يَمنعُ أنثَى تحْمِلُهُ فوْقَ الكتُب كرُزْمةِ أقلامٍ، تَسْتنفِذُهُ، تُعَتِّمُ أرجاءَ مَخارجهِ، وتَقْرأُ فيهِ بمكْرٍ قد يذْبَحُ دِمْنة، أنْ تكتبَ له؟ هَل يبْغي هرَبًا دُونَ وداعٍ، يُرْجِعُهُ إنْسِيًّا، نصفَ الحجَرِ أقلَّ الشَّيْءِ، يَسْتدعي الجِنِّيَ ليَمْضي برسائِلهِ يُحْرقُها فوْق التلِّ؟ ولكنْ مهْلًا، هل نصفُ تحجُّرِه مُعْدٍ؟ هل يَغْدُو بشريًّا كُلَّه؟ هَل تكتُبُ من أجلهِ أُنثاهُ، ويَطوي الحُزْنَ، وتوْقه، كأيَّةِ محنة؟ بَل -بعد تشرُّدِهِ- هل يَقبل؟

أكثر مما ينبغي

هل سأحمِلُ الآنَ ظِلِّي، فوْقَ كلِّ ما تكدَّس من حُزْنٍ تحْتَ هذا القلب؟ هل أُضْطَّرُ للكذبِ عامِدًا، مجددًا، واختِصارِ الشِّكايةِ، لئلَّا أبْدُو كشاعرٍ تكسِّرُهُ الغصَّة، والعَجْزُ عَن الكتابةِ، والتَّعاطُف المفرطِ الَّذِي كادَ لأيَّامٍ أنْ يسحَقه؟ هل أقلِّبُ الآنَ الورقَ في بحثٍ مَحمومٍ عَن جملةٍ ضائعةٍ، كنتُ كتبتُها وروحيَ خاطئة؟ مدانٌ بكلِّ سُؤالٍ، بكلِّ الفِعْلِ، بالتَّكتُّمِ عَلى ما ليْسَ أنا، وما ليْسَ فيَّ. مُدَانٌ بنُكْرانٍ فَجٍّ لكلِّ ما بذلتُ، وروحٍ وضعْتُها تضْحيَةً، على مذبحِ اللَّوْمِ لتمرَّ ليْلة، وما مرَّتْ، لأشْهُرٍ دامَتْ، وأنا المُدمَى بكلِّ ما يُؤذيهِ لا أكفُّ عَن التوسُّلِ، عَن طلبِ الكفِّ عنِّي، ولا شيْءَ كفَّ. هَل أنا لا شيْءَ لهذا الحدِّ؟ محْضُ سوءٍ، وَأذًى؟

ملاجئ

لم يكن يومًا من السّهل تحديدُ الوجَع. أقِفُ أمامَ مرآةٍ، أحدِّقُ فيَّ طويلًا. ما كنتُ أعرفُ قبل اللَّيْلةِ ما أنا، مَّا الَّذِي أكونُه. إنَّني ملجأ، كنتُ مَلجأً. خرِبَةٌ، إنْ تطلَّبَ الأمْرُ تعبيرًا أدق. اعْتَدْتُ التَّشبُّعَ بالآخرين، هُم، وما ضجَّ مِن كوارثَ فيهم. أضَعُ، داخِلي كلَّه، لحُزنهم، شكِّهم، وبعضُ أذًى، والصُّراخ في وَجْهيَ كلّه. تَنْفجرُ فيَّ عدَدٌ من المواقِفِ، تُعرِّضُ ما جزَأْتُ لهم منِّي، لخرابٍ أخيرٍ، متعذَّرٌ إصلاحُه. أصبحُ غيرَ قابلٍ للحُبِّ، أو للتَّواجُد، أهْجُرُ، أو أُهْجَر. وكأنَّ لي قاعدةً، علَّقْتُها قبلَ مجيءِ النَّاسِ فيَّ: إنِّيَ سيِّءٌ، يُكلِّفُني الاكتئابُ تَّرحُّلًا مُتكرِّرًا، هجرَ عُمْرِيَ الَّذِي أعرفُه، مَن يسكُنُ هُنا مُلْزمٌ بتذكيريَ ما أكُون. يَنسى النَّاسُ، وأنسى، أتهدَّمُ، كسماءٍ تعِبَت، أسْقُطُ بثِقَلٍ شديدٍ فوْق الذَّاكرة،

أنسى، ما كنتُ، ما كُنَّا، وأرحل. قاعدةٌ تنصُّ على حِفْظِ الخرِبِ من خرابٍ جديدٍ، ألَّا يُستنزفَ كأيَّةِ روحٍ، فهذهِ، تشظَّى الحُزْنُ فيها حتَّى خلَتْ من كلِّ فُرَص التَّعافي، وليس لها مكانٌ آمِنٌ تعودُ إليهِ، فتستردُّ ذاتها. هيَ روحٌ، بفُرصةٍ واحـــدة، باسْتقامةٍ لمرَّةٍ، لا يُصحِّحُها صفْحُها، ولا المغفرة. ولا أدري ما الَّذي يدفَعُ النَّاسَ ليَنْسوا مَن أحبُّوا، صادَقُوا، صارُوا وهُم شيْئًا، وبأكثر الطرقِ أذًى، يَتعدَّوْنَ حُدودًا، وكأنَّ ثمَّةَ حَقٌّ مُعطًى لهُم، وكأنَّهُمُ الآنَ أوجَبُ بالمُساءَلةِ، كقُضاةٍ تافهين. كيفَ لإنسانٍ، تكونُ لأجلهِ ملجأً، أنْ يُحوِّلَك لشيْءٍ تعِسٍ خرِب؟ لم يكُن من السَّهل شيْءٌ، فكيفَ صارَ الآن سهلًا، جرْحُ الآخرين؟

الشعب والتطهير

نـحنُ لا نـكره. نـبصُقُ عـلى كُـرْه الآخـرين لآخـريـن. نـتقيَّؤهُ شعورًا ميْتًا، لو تنبَّأ به التِّلفازُ. نتقيَّأُ الكراهيةَ، ولا نكره. هزائمنا، مـحبَّتُنا الآخـرين، الَّـذيـن بـدورهـم، يُـحبُّونَ، ويـكرهـونَ آخـريـن، مؤمنينَ أنَّ أولئك عديمو الشَّبه بهم وبأطفالهم.

ونحنُ، نُحبُّ أولئك، كما هؤلاء. وإن مزَّقهُم الرَّصاصُ يومًا، أو انهار إلهٌ على المدنِ، ركضنا برُعبٍ ناحيةَ المذعورين منهم، نُـعيد خـلقهم، نُـرجـع أطـفالـهم لـلبيوت، ونُـربِّـي مـا تـيتَّم مـن شيوخـهم. نتمدَّدُ جانـب القتلى، نُقبِّلُ أعيُنهم، ونـمسحُ الـماء على جباهٍ مُدماة.

نـحنُ لا نكره، ولا نُعادِي شعبًا، إلـهًا، أو صُورة. نُحِبُّ، وما الـحُبُّ إلَّا هزائـم، ومـا هـزائـمُه إلَّا حُبُّهُ لـلنَّاس. ونـحنُ، كـمثله،

نُحِبُّ النَّاس، ونُحِبُّه، رُغم الطَّائراتِ، والغُزاة، والجوعِ، والمدنِ المحاصرة. نُحِبُّه، ونموتُ مثله، على جُثث الأنبياء والقدِّيسين، وعلى الآخرين، تحت أنقاضِ المباني، أو فوقَ الصَّليب، أو وسط السَّاحاتِ في بغداد، أو دمشق، أو القاهرة. نموتُ في السَّاحاتِ مثله، تُعلِّقُنا مشانق، ويُنزلنا إله.

شرف

نـحنُ لا ننسى. قيْؤُنا مُرٌّ مِنَ الإعياءِ والهِجْرَة، مِنَ الحرْبِ، والغاراتِ، والهربِ المُحتَّمِ منْ نوَافِذِها، كُلَّ قصْفٍ، كُلَّما مرَّةٍ أرَادُوا هدْمَنا في الرُّوحِ، أوْ في الصَّوْتِ، أو يُعِيدُوا قتْلَنا كرَّة. نحنُ لا نَنْسَى، وأحْدَاقٌ بِنَا تَعْبى مِنَ الصَّحْوِ تُربِّتُ الكونَ مُحتاجًا لهَدْأَتِهَا، وتَهْرَعُ إنْ شَهِدَتْ عَلى مَحْوِ أُمَّتنا إلى الحربِ، دونَ أنْ تَنسى أنَّها حُرَّةٌ كإخْوَتِنا، تَعْلُو بهم صُلْبَانُهُمْ أعْلَى إلى اللهِ، ومِنْ سِجْنٍ، إلى سِجْنٍ، إلى مثله. شرفٌ لهَا أنْ تَمُوتَ اليومَ مُنْتَحِرة، على أنْ تظلَّ لنزْوَةِ المَعْتُوهِ في ظِلِّه، ولا تَنسى بأنْ تَتْرُكَ جُدْرَانها مَشْرُوخةً صُلْبَة؛ لتُبَرْهِنَ أنَّ القَتْلَ دائِرَةٌ، وأنَّها لُعْبَة، يَمُوتُ الكلْبُ فيها دُونَما قصْدٍ، دُونَما سِعَةٍ، تُصِيبُ الرَّبَّ في رئةٍ، أنْ

مـاتَ الـكلبُ بـعد نُـباحِـهِ الـمَسْعُورِ، أيْ بَـعْدَ مـا شـيْءٍ، قـضَى صُدفة.

إدلب

أرفَعُ رأسيَ مِنْ فوْقِ الحجَر. إنَّ الحِجَارَ هُنا، أبْدالُنا، يَطالُها القَصْفُ الدَّنيءُ لِيَقْتُلَ ما أراد: تِلْفازٌ قديمٌ أطْفَأ نفسَهُ عامَ الثَّورةِ واستدَار، أُمٌّ لطِفلَيْنِ، وقِطَّةٌ أنْجبَتْ للتوِّ، وباب دارٍ أو خياله، كان يُهرِّبُنا خلسةً، ويحصِدُنا قصْفٌ معَه.

تنْزِفُ الرَّأس لكنْ ما ضِمَادُ الخَيْبةِ الآتية؟ ذهبَ الموتُ بما اشْتهى، مَنْ يُعيد الآنَ لَحْظةَ كنَّا هُنا، نُمْسِكُ الأيْدِي، نُغنِّي للثَّائرينَ على الحِمَار. أرى يدَها بغيرِ بقيَّةٍ، فأجمَعُ في الحلم الرَّصاصَ عِنْدَ مجيئِ الطَّائراتِ، وأهرَعُ مُلوِّحًا كيْ تراني، ولتنَل. وخرَجْتُ مرَّة عاريًّا. تتجاهلني ببساطةٍ وتمضي.

سقطتِ اليومَ قذيفةٌ، مزَّقتْ قدميَّ، لكنَّني أصْحُو -لسوء الحظِّ- أرفع رأسيَ المُدمَاةَ من فوقِ الحجَر: لماذا الموتُ عنيدٌ هكذا، يستلِذُّ بأخذِ أنصاف البشَر؟

بغداد

هيَ الثَّمالة جرّاء قصيدةٍ تشظَّتْ بأجْسادِ القتْلى، بعدَ انْفجارٍ شديدٍ في العاصمة. نارٌ تبدَّتْ في انْعكاسِ واجهةٍ مهشَّمةٍ لمحلِّ دُمًى، وكفٌّ تتفحَّمُ بتأنٍّ، كأنّ لِزامَ التعوُّدِ يحتاج تَّضْحيةً واحدة، من بين آلافِ الضّحايا. وكأنَّنا نشْهدُ تقوُّسَ الزَّمَنِ، وانْحناءَةِ نألفُها، في الصّلاةِ، عَلى أجسادِ أطْفالنا المُلقاةَ تحتَ زحْمةِ النّزع، واكتِظاظِ الشّوارع بالملائكةِ النَّازعين، بأجسادٍ اسودَّتْ بفعلِ ظلِّكَ أعْلى، تُطالعها، تتساءَل عنْ خطإٍ مّا وقد تأخّرتَ كثيرًا.

يا أبانا، إلهنا، نرْفَع رأسَنا بنزْفِ الجُرْحِ وقد خيطَ في مَشْفًى لا تعرفُ عنه غير موْتٍ تكدّسَ في رواقٍ. ندعوكَ عَن خجلٍ، بتسليمِ أنّ خطيئتنا بحقّك كانت تكرُّرَ وجهِكَ فينا، في الولادة:

خذ بَقايانا، لا تدعْنا نُعانيكَ حُزْنًا طويلًا، وترفَّق بنا في العُبْوةِ التّالية.

درعا

يُحدِّقُ اللّٰه في وجهِ النَّبيِّ، أعيَتْهُ أحشاؤُهُ، وقد تفجَّرتْ في القصْفِ الأخيرِ. مدَّ طِفْلٌ يدَهُ، يَضْغطُ الجُرْحَ، لئلَّا ينزفَ النَّبيُّ أمَّتهُ كامِلة. ليستْ تعرفُ المدفعيَّةُ وجْهًا غيرَ وجْهه، تراهُ، كمئذنةٍ، تجرَحُ باسْتقامتها صدغَ الزَّعيمِ كرصاصةٍ طائشةٍ، ظلَّتْ تَخسرُ رأسه. تراهُ، طِفْلًا، يعبرُ الشَّارعَ، هلِعًا، ومُرْتبكًا، فَتُسْقِطُ مَبْنًى بأكملهِ فوقَ جسده، لتراهُ يخرجُ ميْتًا من هذهِ الصُّورةِ الهادئة، من سُخريته، من عنادِه، المهمُّ أنْ يخرجَ من ضآلة هذا الجسد. ويا لهدوءِ اللّٰه عندَ وجهه!

ماتَ النَّبِيُّ. تركَ جُثمانَهُ كالأجنَّةِ، موْتًا ناقِصًا، وتهاوَتْ عليهِ السَّماءُ، فرحنا نفتِّشُ فيها، سراعًا، عن إلهٍ أوْ أحَدٍ، لنسألهُ نحتَ شاهدتِهِ: هُنا يرقدُ النبيُّ، ماتَ جرّاءِ القصفِ الأخيرِ على درعا،

وقد تعذَّرَ تهجيرُ رفاته مع الخارجين. ليسلمَ، حتَّى نعود، فإنَّا ائتمنَّا عليْهِ البلد.

دبور يهادن الشمس

كـشهادةِ أُمٍّ تحـْـطِمُ الأضْـلُع. كـدبُّـورٍ عَـلى دِرْعٍ، تَـحْتَ الـشَّمْس. كـالأمْسِ والتَّاريخِ والأذْرُع، كـمَا أفْـرُعٌ مُـحَنَّاةٌ بزَيْـتُونٍ، كمَا أشرع بحَّارٍ أرسَى مراكِبَهُ عَلى أجسَادِ إخوَتِهِ. كطِفْلةٍ منَّا، كالكَهْلِ، في قبْرِهِ مِنْهُم. كاسمٍ مُخَرْبَشٍ بغيْرِ إتقَانٍ، بغيرِ ذِي قلَمٍ، أضْـوَاءُ خَوْذةِ الـجُنْدِي تَكادُ تُظْهِـرُهُ. مُقاوِمَةٌ هـذهِ الأرْجَاءُ، وَالأدْمُع.

بيت الفلسطيني للفلسطيني

أحاوِلُ اختِزال سرديَّةٍ في نصْفِ جُملة. أفاوِضُ السَّخطَ النَّبيل. ألْعَنُ كلَّ هذِه. ويَعتريني بُكاءٌ مُرٌّ إذا ما قصُرَت يدايَ ردَّ الحجَر، واسْتحالَ شعْبٌ قديمٌ بداخِلي، يُسائِلُني عنْ نِصْف كوْنِيَ ناءٍ منْهُ الخطَر. فأحثُّ طِفْلِيَ أنْ يُدَانَ -كمثليَ- بالشَّتيمة: علَمٌ نَذْلٌ! واحْتلالٌ نَذْلٌ! مُجنَّدٌ قذِرٌ! وفِكْرَةٌ أقْصَرُ مِنْ أنْ تُلاحِقنا بالهزيمة!

التآخي والحجر

إنَّا هُنا باقون لَعْنة

نُؤوي الزَّمن الطَّويل بأرضِنا

نُعرِّفُهُ الحجارة كُلَّها

نُعْطِيهِ اسْمًا

رَحْمًا

ووِلاداتَ عدَّة

ونَحْمِي النُّبُوءة كلَّ مُدَّة

لِئلَّا يُساوِم

زمَنٌ فِلَسْطِينيٌّ مُقاوِم

يُجيدُ التَّآخيَ والحجَر

حزن واحد

على بُعْد حُزْنٍ.. واحدٍ

يقِفُ الحَزينُ ليَتْرُكَ أرْجُلَهْ

يُطمْئِنُ القَبْرَ اللَّصيقَ بقلبهِ

الماكِث فوْقَ السِّنينِ المُثْقِلَةْ

أنْ لنْ يُبَارحَ من دونهِ خطوَةً

بَعْدَ الَّذِي كادَ أنْ يَقْتُلَهْ

إنْ كانَ الرَّفيقُ يريدُ خلاصَهُ

فَلْيَأتِ بشيْءٍ جَميلٍ كي يَحْمِلَهْ

رُبَّما مَهْدٌ يَخلو من طفلِهِ

أوْ بَعْض أقدَارٍ تُصَحِّحُ مِغْزَلَهْ

رُبَّما لو جاءَ رَفيقٌ آخر غَيْرَهُ

غيرَ الَّذِي تركَ الجُرُوحَ عَلى الأسئلةْ

يَغْفِرَ ما تبقَّى.. والَّذِي

يأتي، إنَّما يأتي ليَقتُلَ أجْمَلَهْ

العته الثوري

يومٌ عاديٌّ.

يُستثنى منْهُ تشظِّيَّ،

ومَوْت اللَّحظَةِ فيَّ،

وخوفٌ يرْفعُهُ ربٌّ فوْق النَّخْلِ.

صَلْبٌ،

والشُّرْطَةُ تُحْكِمُ قَتْلَ الصَّرْخةَ في الظِّلِّ.

إنْ قتْلَى برؤوسٍ، ظَمْأىً،

كالكُلِّ،

تُشْنَقُ إنْ رفضَتْ حُكمَ النَّذْلِ

وانْتفضتْ في وَجْهِ العتَهِ الثَّوْرِيِّ

ستُشْنَقُ، لكنْ

تَنْزِلُ بَعْدَ مُضِيِّ اللَّيْلةِ

تفضحُ وَجْهه،

تسْتعوِي كلابه.

يومٌ عاديٌّ، لكنْ

تطْحَنُ للذِّئْب،

نِعاجٌ،

نابَه.

يومٌ عاديٌّ جدًّا.

شغب

شغَبٌ،

يَزْدادُ كلَعْنةِ عربيٍّ،

في وَجْهِ الوَغْدِ.

فقَد سرَقه!

يطْلعُ، بعدَ ثمانٍ،

يعِظُ النَّاسَ بما جَفَّ، وساءْ.

غضَبٌ ينزِفُ خوْفًا،

كلَّ مساءٍ

يُسْحَق تحْتَ حذاءِ الجُنْدِ.

ويصُبُّ الدَّمَ في فمِنا، النَّذْلُ،

بدلَ الماءْ!

محميّ بريش إلهه

ظلَلْتُ أعْنَى بغِرْبانيَ ميْتةً. هَل يعرفُ اللهُ أنِّي حفِظْتُ كلْتا يديَّ كيْ لا تَقْتُلا، خطَأً، حمائمَهُ؟ وبَنيْتُ بُرْجًا لهَا على كتِفِيْ، كما الملَكانِ، كيْ لا تَغرَّبَ مِنْ تعَب؟

النبوءة مقبرة

هذِي يدايَ، مُكلَّلةٌ بالجنائزِ، حمَلتْ دُونمَا مئةٍ منَ العظْمِ والرِّيشِ، صِفْرًا منَ النَّاجين والإخْوَة.

منكسر في الأوركسترا

يكسِرُ كمانهُ بعد أوَّل محاولةِ عزْفٍ على قبرِ صديقٍ قديم.
يكسِرُهُ هادِئًا، بملْئِ عينيْنِ، وابتِسامةٍ فاتِرة.

وهامت به شاعرة*

تعثَّرَ بِشاعرةٍ، كادت أنْ تقتُله واقفًا على بدْءِ القصيدة.

* العنوان مقتبس من ديوان «لو أنبأني العراف» للشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة.

وصايا نوح

يُسوِّدُ وصيَّةً، بعَيْنينِ مُغْمضتين، أتعبَ الخليقة دهْرًا، وطوى الصَّفحة فارغة.

روح صحيحة بأخطاء عدة

بـي رغـبة بـأن أمـحو هـذا كـله وأصـمت. لـكن، إن فـعلتُ، أدري، سأفقِدُني تمامًا، لن أكتبَ بعدَها، ستقتلني الأشياء. عليَّ معرفةُ أني أكتب لأساعدني، عليَّ أن أأمنَ النصَّ، ألّا أخافه، أن أتصالحَ معي، هكذا تُقال: التصالحُ مع الذّات! عِوَض المساميرِ التي ضربتُها في رجليَّ وصوبَ رأسي. إني خائف. أشعر أني كذبت على عقليَ حتى بات الذي يدورُ بهِ، وفيهِ، أصدَقُ من أيِّ التي مضت. أعشتُ الحقيقة يومًا، أم أنّيَ أفقده؟

كدر بلوحة مفاتيح

هذا لا يُشبه أيِّي. أحاولُ قولَ أشياءَ كثيرة، كهذهِ، إلَّا أنَّني كلَّما أردْتُ طلبَ النَّجدة، أطْبَق هواءٌ ثقيلٌ عَلى فمِيَ ليمنعني الكلام. ويغرِزُ شوْكًا عَلى أطرافهِ. يَخيطها إنْ حاولتُ مُجادلته. عليَّ أنْ أخرَس. ألَّا أعبِّر عن عدمِ ارتياحٍ، أو أشكو من اكتئابٍ. أنا كدَرٌ بلوحةِ مفاتيح. أبْدُو كآلةٍ كاتبةٍ منزوعة الأحرفِ، تطبَعُ الحُزْن دُون تنقيطه، وتبرعُ فيمَا سواه. أنا شيْءٌ يَفزعُ إنْ تكلَّم، ينضحُ شكًّا. وإذا ما أخرَسني عدمُ فهمِ مَن حوليَ لي، عدتُ لعمومِ الثِّقَلِ يكسِرُ ما تبقَّى من ريْبةٍ فيما يدور.

«مرحبًا، لكنَّني سيِّءٌ!»

يُفنِّدُ الآخرون هذهِ الحقيقةَ بكلِّ ما اسْتطاعُوا من وهْمٍ. أتوقَّفُ

عن تَكرار ذلك، أفسِحُ للحماقةِ الأولى أنْ تَمَّحي. أُهجَرُ في النهاية.

كانَ الأمْرُ سيِّئًا دومًا، صارَ الآن أسْوأ. الجيِّدُ، أنَّ الأسوأ -بالمُطلق- لم يرتجِل دوْرًا بعدُ. فمن يعرفُ مُزحةَ اللهِ الأخيرة؟

طير ينتحر بصدره

الأمْس كانَ عيدًا. أمضيْتُ اليوم، كما العادةِ، وحديَ، منكسِرًا. ساعاتٌ -كانت- تتمدَّدُ، تُثْقِلُ صَدْرِيَ، تملؤُهُ شعورًا بالوحدة، بالحُزْنِ، تنْحَتُ همًّا تُبْقيهِ كصورة، أتذكَّرُها العامَ القادمِ، أو غد، كضِلْعٍ زائد.

يَجرحُني، أنَّ الصُّورَة، تُوجِزُ عُمْريَ كلَّه، وَأنَّ الشَّكْل بعيدٌ عن كونِه كذبة. يَجْرَحُ، أنَّ الأيَّام كمثله: بشريٌّ مُهْمَل.

هـــل أجمَعُ بعضي؟ لا أعرف. هـــل أمكثُ في الحُجْرَةِ؟ لا أعرف. لكنِّي مُكتئبٌ، ولا أدري. أسْأمُ هذا كلّه. ثمَّة ما يقتُلني بتكرارٍ، لا يُفسِحُ لي فُرْصة أنْ أعْدو، أنْ أتجاوزَ حُزْنَ الفَقْدِ، أنْ أصْحُو مُبْتسمًا.

أكثيرٌ أنْ أرغبَ في أنْ أشعُر بالشَّمسِ؟ أنْ أمْحُو كدرَ الأمْسِ ببَهْجة؟ أكثيرٌ أنْ أشعُر بالدِّفْءِ، أنْ أقِفَ أمام المرآةِ، فأنظر بَشريًّا، لا أستغربُهُ، لا أكرهُ وَجْهه؟

ثَقيلٌ ما فيَّ، وما حَوْليَ يُثقِلُني أكثرَ، ولا أدري، فأريدُ المَوْتَ كعُصْفُورٍ، كإلهٍ مَغْلوبٍ، كأيّ جريحٍ يقتل نفسه. أكثيرٌ هذا حقًّا؟

يوميّات مسرّبة

هل يكتبُ المجانين مذكّراتهم؟ ماذا يكتبون؟ هل الورق يُغوي أكثر من لوحة المفاتيح هذه، والبياضِ الَّذِي يتقلَّص؟ نصٌّ، مؤرَّخٌ بتلقائيّةٍ فجّةٍ حين بدئه. ليس عليّ الآن ادّعاء أنّي فشلت في محاولةٍ سابقةٍ للكتابة.

بطريقةٍ مّا، ظلَّ عقليَ يسوِّد صفحاتٍ كثيرة، في دفترٍ، أحببت الكتابة فيه، وكرهتُ ما كتبتُ، لكنَّني، لم أفشل في مواصلة كتابةِ مذكَّراتيَ أبدًا، كنتُ، أضع ما في رأسيَ على الورَق بين فتراتٍ متباعدةٍ فحسب؛ لاضمِحلالِ روحيَ أكثر السنةِ، أو فراغِ رأسيَ الصّادم رغم ما يَعتريني من رغباتٍ للكتابةِ والتحدّث كثيرة.

لمن أكتب؟ سؤالٌ، يلحّ على رأسيَ، أو أنّي سألته أمامَ مرآةٍ يومًا، وافترضتُ أنّه ظهر هناك.

إذن، هل يكتبُ المجانين، والشّعراء، والأنبياءُ مذكّراتهم؟ أظنّ أنّ المسيحَ وحده، من حاولَ لمرَّةٍ أن يَفعل، لكنَّهُ فضَّل مِسْماريْنِ، وأنْ يخلِّي جذعَهُ فوقَ خشبةٍ لا تعرفُه، ينزفُ، كرسالةِ انتحارٍ -حسبما أظنّ- أمامَ فظاعةِ العالم.

هوّن عليك. إنّي أحاوِل افتراضَ ما لا يُفترض، أعبثُ، بتلذُّذٍ بهذا الثّابتِ: العقْل، والسرديّة البَلهاء، أُعيد ترتيبَ فهمِهما، خاطِئًا، وأعرف ذلكَ، أمضي فيهِ بفتور مَن لا يأبه. أجد اليَقين فيّ، كتمْثالٍ عشَّشتْ غربانيَ فيهِ، لكنَّها تظلُّ، بطبيعةٍ، وسوءِ الحالِ، غربانًا، تغادر.

أمّا الشَّكُّ، فغرابٌ بدوره، لا يَقينٌ مؤقّت. كأنْ أنسى مكانَ التّمثالِ، أو ذاتيَ في عالمٍ غير الَّذِي تسرّبتُ إليهِ للحظةٍ، كوَمضةٍ مفاجئةٍ، أو كوابيس متكرّرة. ولستُ آبه، بأيّةِ حالٍ، إذا

ما عُدَّ إيواؤه كُفرًا، فلطالما كنتُ أكفرُ بالَّذِي أكتب، ولست أقدِر أنْ أكتبَ إلهًا، لأكفر به.

إنِّي ضعيفٌ اليومَ، وأمسَ، وما قبلَ الأمْسِ ولصفٍّ كاملٍ في رزنامةِ الله، لست أسعى، أو أنهض أنوِي السّعي، فدوَاخلي محطّمة، وأبوابُ روحيَ غير مرئيّةٍ، لأعبرها، وقد حاصَرها كدَرٌ قديم؛ وكأنّه توجّب عليه أنْ يموت، أنْ يغادِر هكذا ببساطةٍ، بأكثر الطُّرقِ وجَعًا، وأن أحتفظَ بصورةِ الموتِ هذه إلى الأبد.

لكنَّني الآن، وعلى نحوٍ غريبٍ، لا أشعر بشيء. فليمُت. الحبّ وحده يحتلُّنِي، ويُفرِّق بنادقَه فيّ، في الشَّوارع، في أرجاءِ روحيَ، كقصيدةٍ متقطِّعةٍ تُذاع، سبَقتها أغنيةٌ مّا لفريدٍ، و«أحبُّكَ» بنُطْقٍ عذبٍ مُتخيَّل. إنّي، ولأوّل مرّةٍ منذ أعوامٍ، بخير. بخيرٍ جدًّا، تمامًا كما يجب.

حيّ فوق قبر

مرحبًا، أنا هُنا بالأسفَل، على بُعدِ سماءٍ كاملة. أعطِني إشارةً مَّا، أيَّ إشارةٍ، فقد تعِبْتُ، ومن حوليَ رمَادُ أمْسٍ مُحترِق. إشارةٌ واحـدةٌ فحسـبُ إنْ كُنتَ تـسمع، تـعِبْتُ مـن كـونـيَ أكـفُّ، وأمضي، مُتكفِّلًا بكلِّ الذِي جرَرْتُ خلفيَ في هذا اللَّيْل نحوك، أُحْرِقُهُ فوقَ قبرك. سئِمْتُ بُكاءً يَتْلُوهُ حُزْنًا كـامِلًا، ووجَعًا فـي الـضُّلوعِ؛ أنـهضُ بـالأشيَاءِ التي عنها صـمتٌّ مُقطَّعةً، مَشْـطِيةً، مُـنغَرِزَةً أرجـاءَ روحـي. ومـا زلـتُ أحـاولُـك، أنْ تـقومَ لـليلةٍ كـي تستمِع.

بعدك

لمْ أُعاتِبْكَ، لأنَّك لمْ تَختَر فِعْلَ الرَّحيل. أو تركيَ مصْلُوبًا بأقدَارِ النَّاسِ، أُعْلَى وأُنْزَل. لمْ تَخْتَر الأشيَاء عن خطَإٍ، ولمْ تنسَ. لكأنَّني أُحاوِلُ العيْشَ بعدَك، بعضًا مِنْ هواءٍ، كثيرًا من خواءٍ يسْكُنُ الأشياء. ولمْ تختَر، لمْ يكُن من حقِّكَ أخْذِي عَن هذهِ، منِّي، ومِنْها، مِنْ أوْجَاعيَ الشتَّى، ومِنْ عُمرٍ طويلٍ.

ولأنِّي حاولتُ العبورَ خلفكَ، شابَ مِنِّي مَا كانَ منكَ، وعدتُ مَحْمُولًا على لا شيْءَ، مَخذُولًا، فارغًا، استنفذْتُ في قولِ هذهِ كلَّ قُواي. ولكنَّكَ يا عزيزُ ما عُدْتَ تنسى. مُمدَّدًا في التُّرْبِ أسفَل. ما عُدْتَ تأتي بعضَ المنامِ، وما عُدْتَ عن ميْتٍ فوقَ الأرضِ تسْأَل، وكأنَّا ما تسَاوَيْنا في الملام. ما تباعدْنا قدْر

موْتٍ وموْتٍ، قدْرَ صوْتٍ ما في تكسُّرِهِ إلَّا نهاية، ما تساوَيْنا في الأذى، إلَّا لأُقتل.

هزائمه والرغبة

أتدري، أستحقُّ الأشياء. الحُزْنَ يُثْقِلُ أضْلُعِي بهَلاكٍ مُشدَّد. أسْتحِقُّ الانتفاءَ من الأماكن، والأصدقاء، والغرباء. شعورٌ يُلاحِقُ أوْجُهِي أينمَا ولَّتْ، برغبةٍ في المَحْوِ. أستحِقُّك، غير مُستحقٍّ لسِوى شبحٍ، وذاكرةٍ، وشاهدةِ قبرك. ولِذا، أُكمِلُ الدُّنْيا غير مُستطيعٍ الهربَ من أيِّ التي تُؤذِي، وتَقْتُل، مِن كلِّ ذِي تعَبٍ، مِنَ الصَّوْتِ يَمْزِقُ أحشائيَ، ورغبَاتٍ في البُكاءِ كثيرة. أستحقُّهُ؛ الموتُ مثلَك. مُسْتحِقٌّ للخوْفِ، والرَّهْبة. وَبقائيَ مهْزُومًا على الأشياءِ بلا ضجَّة. كئيبًا، كمثليَ، أُشْبِهُ مِرآتيَ التَّعْبى. أستحِقُّ الموتَ مشْنُوقًا، كشاعرٍ هاربٍ. كاستِحقاقٍ أخيرٍ، ورغبة.

النعش

سأكتبُ رأسًا. لأنَّ رأسيَ مُثْقلة، وعيْنَايَ تكادانِ تخرُجان. أثمَّةَ هُدْنةٌ من هذا كلِّهِ؟ حَلٌّ وسَطٌ؟ توقُّفٌ مُؤقَّتٌ أستطيعُ خلالَهُ الهربَ إلى أكثرِ الأماكنِ ظلمة؟ يتبدَّى ليَ أنَّ أكثر مكانٍ أخافُهُ هُو أكثرُ مكانٍ آمنٍ. خوْفِيَ لمْ يُؤذِني لهذا الحدّ. هذا الإرهاق؟ التَّعب؟ تشظِّي اللَّحْظةِ، تنفُّذَها فيَّ؟

عُدْتُ لتصويرِ جنازته، أحدِّقُ بهِ مَرْفُوعًا، ساكِنًا، بكفَنٍ يَلفُّ جسدَه. بدى أطولَ من آخرِ مرّةٍ وقفتُ إلى جانبهِ فيها. هل الموتُ يجعَلُ قاماتَ النَّاسِ أطول؟ لا يُغيِّرُ شيْئًا؟ حسَنًا. تحطَّمَ قلبيَ آنذاك معه. ماتَ، مِتُّ معَه. والآنَ أحاوِلُ رفعَ ثِقَلَ الموْتِ لنُورٍ مسَّني لحْظةً واختَفى. أمُدُّ يدًا من تحت، لا شيْء، فراغٌ، مُنْعدِمُ الهواءِ، باردٌ، كاسْتِطالةِ الحُزْنِ، أوْ ثلَّاجةِ الموتى.

أكـرهُ هـذا كـلّه. أكـرهُ أنِّـي أعجَـزُ عَـنْ رفـعِ هـذا الـثِّقَل، أنَّ الآخرينَ ينصِبُونَ لي مُحاكمةً في كلِّ تبرٍّ للرّوحِ منّي، وكأنّني المسؤولُ عَن حُزنيَ أو مقامِه. وكأنّيَ المستطيعُ إلى خلاصيَ، أوْ خلاصِه. موتيَ لنْ يُسهِّل أيّ هذا، لكنّيَ أرغبُه. عَجْزِيَ عَن اعتِيادِ العيْشِ بعده، التَّحديقَ في الآخرين دُونَ خوْفٍ يَنْزِعُ أعضائيَ منّي، الحبُّ دُونَ أنْ أقدِرَ عَلى اسْتقامةٍ كامِلة. كلُّ شيْءٍ يَظلُّ ناقِصًا، دونَ قصْدٍ منّي. وهذا النَّقْصُ كانَ قبلَه.

عُدْتُ إلى صورِه، صورِ رفاقه. هل كنتُ شيْئًا حينها؟ تساءَلْتُ. ليسَ مهمًّا. لسْتُ مَوْجُودًا. صِرْتُ مائلًا، وكأنَّ للحزنِ مذْبحًا فيَّ، يزْدَادُ بلَلًا، من فرطِ ما صَلبْتُ عُمْرِيَ كامِلًا، فَوْقَ أحْزانٍ تقطَّعَتْ فيهِ. لمْ يكُنْ يومًا عُمْرًا واحدًا، كانَ أعْمارًا، وكنتُ كبُرْتُ بَعْدَ كلِّ حُزْنٍ إلى حزنٍ يَليه. لمتُ اللّهَ يومًا، وما عدْتُ أفعل. كرهتُه، والآن أحبُّه. أظنُّني أضعتُ فهمَ شيْءٍ مَّا، أرادَ قوله، أوْ لم يُرِد، وما يُدريني، لكنَّني لسذاجةٍ فيَّ أفترض، أوْ

لأنـحّيَ عتبًا غير لازمٍ، وكـأنَّ روحـيَ مُلوّثـة، أحـاوِلُ عبَثًا التَّكْفير عَـنْ شـيْءٍ لا أعـرفُـه، أضْـغطُ عَـلى أضْـلُعي بـتذكُّـرِ كـلَّ شـيْءٍ، ونسيانه.

هُدْنة؟ لعامٍ واحدٍ، أريدُ هُدنةً، لا تكسِرُ فيها بعضَ روحيَ، أوْ تنسَـى فيها أضْلُعِيَ تـحترق. لـعامٍ واحـدٍ، لـيسَ عـليَّ أنْ أغـلقَ مـا بيْني وبينَ العالـمِ، أستطيعُ قوْلَ قصيدةٍ، دونَ تكسُّرِها في فمي، دُونَ دمٍ، دُونَ رأسٍ مُتعَبة. وخُـذ الفراغَ معك. رُدَّ إلـيَّ عُـمْرِيَ مدَّة عامٍ، وافعَل بعدهُ ما شئت.

نهاية

أستحقُّ شيْئًا، لكنِّيَ لا أعرفُ ما هُو. أكتبُ برأسٍ فارغةٍ، بقصدِ إفْراغِها من هواءٍ، تشبَّع رغبةً بالكتابة. هذا سيِّءٌ، سيِّءٌ حقًّا. رغبتيَ بأنْ أكتُبَ، بروحٍ تعِبَةٍ كالَّتي أحمِلُ، تحقِّقُ نبُوءَةً تبدَّتْ لي ليلةً ككابوسٍ سيُلاحقُني طويلًا. ماذا إنْ توقَّفْتُ، واستجمعتُ أنفاسيَ، سأصعَدُ صَليبًا، أوْ أتمدَّدُ، أضْرِبُ أوَّلَ مسمارَيْنِ برجليَّ، وآخرُ في اليُسرى. آهٍ، سيَلزمُني صَديقٌ لمسمارٍ أخيرٍ. لن يَصلبَ المرءُ نفسَهُ عادةً، لا يَقدِر، صلْبٌ ناقِصٌ يَظلُّ إنْ حاوَله.

أدركُ عبثيَّةَ حتَّي الأحرُفَ أنْ تكسَّرَ خارِجَةً، ولكنْ ثمَّةَ رِضًا، أخافُهُ، أشعرُهُ، يَمُدُّني بسطْرٍ تلوَ آخرٍ كتمرُّدٍ على الطَّبيعيِّ، عَلى الحُزْنِ مُلتصقًا بجدارِ القلْبِ، ضاغِطًا على الأضلاع. ماذا

أعرف؟ فكلُّ تعرُّفٍ على وجْهِيَ يَفْشل، أوَّل الصَّحْوِ، وعندَ استردادِه آخرَ اليومِ من أيِّ المرايا. هل لراويةٍ، أنْ تُؤجِّلَ هذا التَّكسُّرَ، أنْ تردَّني أحدًا، شيْئًا، تضعني كدُمْيةٍ في صندوقٍ أصغَر منِّي، وحشريَ فيهِ. أريدُ محوَ نفسيَ، أريدُ أنْ أستردَّني، وأريدُ محبَّة الله، والآخرينَ الَّذِين أحبّهم، ولكن، كلُّ هذا عصيٌّ، كلُّ هذا عصيّ.

كيفَ لي الآن، أنْ أعبُرَ مقبرةً، وأنا المَيْتُ، لا قبرَ لي، أهربُ منذُ خمسةِ أعوامٍ من الملائكةِ، مُزوِّرًا تاريخَ موْتيَ، وَجْهيَ، والصَّوْتَ الَّذِي أحملهُ، واسْميَ كضرورةٍ أخرى. كيفَ لي، أنْ أودِّعك، بطريقةٍ لائقةٍ، وأنا نسيتُ روحيَ عندَ شاهدةِ قبرك، مُلقاةً، منذُ سنين. ماذا سأنسى الليلةَ غيرَها، ماذا سيَلحقُ بي أكثرَ من تعثُّرِ الحظِّ وسوئهِ في إيجادِ رفيقٍ غيركَ، والمُضي. تخلَّيْت عنّي، لا أعني بموتِك، قبلهُ، فلماذا أعجزُ الآنَ عن التخلِّي عنك؟ لماذا لم أمُت، ومتَّ أنتَ؟

تنتهي الشِّكاية. أجرُّ روحيَ، تتراجعُ، تودُّ، لو تبتلع هذا كلّه. من السّخف أنْ يحتفظَ أحد بهذا، بهذيانٍ مشتَّتٍ، مثقوبٍ، يخرُّ سائِلًا لزِجًا أسْودًا، كعتبٍ ذائبٍ. من السُّخفِ الاحتفاظُ به، لكنَّني أفعل.

الفهرس



لكنَّني الآن، وعلى نحوٍ غريبٍ، لا أشعر بشيء. فليمُت. الحبّ وحده يحتلُّنِي، ويُفرّق بنادقَه فيّ، في الشَّوارِع، في أرجاءِ روحيَ، كقصيدةٍ متقطّعةٍ تُذاع، سبَقتها أغنيةٌ مّا لفريدٍ، و«أحبُّكَ» بنُطْقٍ عذبٍ مُتخيَّل. إنّي، ولأوّل مرّةٍ منذ أعوامٍ، بخير. بخيرٍ جدًّا، تمامًا كما يجب.